الأدب الصوفي عند عبد الغفار بن نوح الأقصري

د/ عبد الحميد الضوى لبيب

- ١ -

هو عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن عبد الحميد بن محمد الأنصارى(١) أما صاحب الأعلام فيترجم له بقوله : هو عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد الأنصارى القوصى المعروف بابن نوح ــ أصله من الأقصر بصعيد مصر العليا اشتهر بقوص وعاش بها(٢) .

وينتهى نسبه بسعد بن عبادة الأنصارى(٣) هكذا ترجمت له معظم المراجع ولد بالأقصر ولم تحدثنا المراجع والمصادر عن تاريخ ميلاده حتى كتابه الوحيد فى سلوك أهل التوحيد لم يذكر تاريخ ميلاده فى الأقصر فى صدر حياته الأولى حيث تلقى تعليمه الأولى على يد

---

(١) مراجعة : التوحيد فى سلوك أهل التوحيد جـ ١ ص ٢ لعبدالغفار ابن نوح وهو ما زال مخطوطا بدار الكتب تحت رقم ٢٢٦ تصوف طبقات السبكى جـ ٦ ص ١٢٦ والكواكب السيارة ص ٢٢٦ لابن الزيات والسلوك جـ ٢ ص ٥٠ والدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٨٥ والنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٠ وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٤١ طبقات الشعرانى جـ ١ ص ١٨٨ وكشف الظنون ص ٢٠٠٥ وفهرس الدار القديم جـ ٢ ص ١٤٣٠ وهدية العارفين جـ ١ ص ٥٨٧ ومعجم المؤلفين جـ ٥ ص ٢٠٠٥

(٢) انظر المراجع السابقة .

(٣) الأعلام جـ ٤ ص ٣١ .

فتخبة من علمائها فحفظ القرآن الكريم وألم بعلم الحساب وغير ذلك من العلوم •

ثم رحل الى قوص حيث عاصمة الاقليم والعلم فيها على أوسع فتلمذ على يد كثير من أساتذتها وشيوخها فسمع الحديث من الشيخ الامام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى •

ولم يكتف بذلك فرحل الى مكة المكرمة طالبا للعلم فسمع الحديث من كثير من علمائها منهم العلامة ابن الطبرى وصاحب كثيرا من علماء وأدباء عصره منهم الشيخ أبا العباس أحمد والشيخ عبد العزيز المنوفى •

وكان رحمه الله عالما عاملا وعابدا زاهدا وزعيما قائدا وخطيبا مؤثرا واجتماعيا ناجحا حمل لواء العلم فى صعيد مصر كما حمل لواء الجهاد لاعلاء كلمة الله ولنصرة الاسلام والمسلمين •

حدث بقوص وكان يحظى باحترام وتقدير المجتمع القوصى من الشعب والحكام والأمراء •

كان رضى الله عنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر غيورا على الشريعة الغراء مدبا للعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كارها لمن يخالفها • فهو عالم دينى ومصلح اجتماعى — ان صح هذا التعبير — كان له أسلوب فصيح • اتخذ قوصا مقاما له وله بها رباط وقد نسب اليها فقيل القوصى •

- ٢ -

وهو من شيوخ التصوف العاملين فى القرن السابع الهجرى •وكانت له أحوال ونسبت اليه كرامات • فكان يحضر الى رباطة بقوص الحكام والعلماء والوجهاء للزيارة وللمشورة وكان مكروها من النصارى لشدة

غيرته على دينـــه ولنصرة المسلمين وله معهم قصص مشهورة يحـدثنا عنها فى كتابه الوحيد فى سلوك أهل التوحيد(٤) .

وقد اتهمه خصومه باثارة الفتن مما دعا الى اعتقاله مدة طويلة ومما دعانى الى ذكر هـذه القصة هو ما ترتب عليها من زعامته واعتقـاله مدة الى أن توفى بالقاهرة معتقلا فى الثامن من ذى القعدة سنة ٧٠٨هـ ولكن فى طبقـات الشعرانى جـ١ صـ ١٨٨ ان وفاته كانت سنة سـبع وستين وستمائة وهـذا خطأ وكذلك كتاب الأدب الصوفى فى مصر(٥) ذكر ان وفاته كانت سنة ثمان وسبعين وستمائة هجـرية وهـو خطأ أيضـــا .

والصواب انه توفى فى الثـامن من شهر ذى القعـدة سـنة ٧٠٨هـ(٦) والدليل على ذلك ان أحداث الفتن التى اعتقل فيها ابن نوح حدثت فى القاهرة وسائر البلدان(٧) . والأقاليم المصرية سنة سبعمائة هجرية وفى هـذا التاريخ كما حدثنا فى كتابه الوحيد كان يقود ثورة شعبية للتصدى لهـذه الفتن فى قوص ثم اعتقل بعـدها فى القاهرة وتوفى بهـا .

- ٣ -

وللشيخ عبد الغفار مدرسة برباطة بقوص كان يدرس فيها العلوم

---

(٤) الوحيـد فى سـلوك أهل التوحيد رقم ٢٢٦ جـ ١ ص ١٣ وما بعدها ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٥) الأدب الصوفى فى مصر ص ٣٦٣ .

(٦) السلوك فى معرفة دول الملوك ص ٩٧ .

(٧) المرجع السابق ص ٩٧ .

الإسلامية كعلم الكلام والتوحيد وغير ذلك من أمور الدين وكذلك علم الحديث وقد ألف عدة كتب منها :

١ — الوحيد فى سلوك أهل التوحيد والتصديق والايمان وهو مخطوط بدار الكتب المصرية من جزئين تحت رقم ٢٢٦ ، ٢٢٧ تصوف .

٢ — وله رسالة فى الفقه الشافعى وهى مفقودة .

٣ — **وله كتاب تراجم علماء ومتصوفة قوص** وهو مفقود أيضا وله كثير من الشعر وأكثر شعره فى التصوف ومدح النبى ﷺ ووصف الأماكن المقدسة التى كان يحج اليها كثيرا وكذلك الحنين والبكاء على هذه الأماكن وعلى الأحباب كما له كثير من النثر الأدبى يتمثل فى كتابه الوحيد الذى يتحدث فيه عن التوبة والورع والزهد والخوف والأوراد والأحزاب والوعظ والارشاد والنصائح والوصايا وعذاب القبر ونعيمه وحكايات عمن رافقهم فى حياته من متصوفة وأولياء وغير ذلك الكثير .

وتوفى الشيخ عبد الغفار فى الثامن من ذى القعدة سنة ثمان وسبعمائة هجرية — ١٣٣٥م .

— ٤ —

موضوعات شعره :

فى الحب الالهى :

قال ابن نوح(٨):

يا ذا لم تكن تجرى عليك المدامع
وافنى بها عمرى فعمرى ضائع

---

(٨) الوحيد فى سلوك أهل التوحيد ج ٢ ص ١١ .

لقـــد غلقت أبواب كل مؤهـــل
وقـــد قطعت الا لديك المطـــامع
وبابـــك مفتـــوح بـــه كل قاصـــد
وليس عليـــه دون فضـــلك مانـــع
وقـــد ضـــيع الوداع كل وديعـــة
لديهم وما خـــابت لديك الودائـــع
وها أنا مطـــروح ببـــابك واقـــف
الى بنظـــرة منى بطيفـــك قانـــع
غرقت ببحر الجود مالى سوى الرضا
لديك وان القـــى بعـــزك خاضـــع

نظم ابن نوح هـــذه الأبيات بعـــد أن أرسل برقية لأحد الاخوان فى الله يقول له فيها : أيها الأخ كل نفس فاتك من الله تعالى فهو عليك خسران ان عوضت به ألف جنيه فان الله تعـــالى عوض عن كل شىء وليس فى شىء عوض عن الله تعـــالى وفى هـــذا الكلام غنيمة عن تقـــيره •

وابن نوح فى هـــذه الأبيات يخاطب محبوبه الذى من أجله كان للبكاء وفى حبه كثر النحيب وله أجرى الدموع وأنه ــ فنى حيـــاته فى البكاء من أجل الوصال والا فعمره قـــد ضـــاع •

وان بابه مفتوح أمام كل طالب وان فضله لا يمنع عن أحـــد من خلقـــه •

وقد ضاعت الودائع عنـــد الناس لانهم غير آمنين عليها ولكنهـــا

عنـد حبيبه وهو الذات المقدسة لن تضيع فهى عنـده فى أمان سواء كانت كبيرة أو صـغيرة فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

وانه واقف ببابه ليجود عليه بنظرة يتبدل حاله بهـا حتى ولو كانت هـذه النظرة باللطيف فانه على كل حال قانع رضى بها وبها يغرق فى جود كرمه وليس له سوى رضاه عنـه وهو خاضع مطيـع لعـزه وجـــلاله .

فالشاعر يتجلى فى هـذه الأبيات مع آلمـه وشجنه فهـو دائم البكاء وان دموعه تجرى خوفا من ضياع عمره الذى افناه يبتغى فيـه رضـا المحبوب . فحبه يرتفع فى هـذه الدنيا عن متـاعها وملذاتها وآلامها ومضـارها .

فهو فى سـعادة روحيـة تغمر فؤاده وتفعم نفسه وذلك بسبب ما يستشعره فى أعماق قلبه من رضا المحبوب عليـه .

والأبيات واضحة لا غموض فيها فعاطفتها صادقة ومعانيها قـوية والفاظها سـهلة وعذبة . فلا تكلف فيها ولا صنعة بديعية متعمدة .

واستخدم الشاعر فى أبياته الأساليب الخبرية لان حال المريدين يتطلب منـه أن يوضح لهم كيفية التفانى والطمع فى حب الله وانـه لا مؤمل غيره وان كل الأبواب مغلقـة الا بابه هو الذى يطمع فيـه كل مريد ذاكر محب له . وكيف لا يطمع الحبيب فى حبيبه .

وهو الذى يستمد منـه الحيـاة . واسـتخدم الشاعر أسلوب التوكيد فى قوله « لقـد » ليوضح لمن فى قلبه ريب وشك ان كل بابه ما عداه فهو مغلق فلا رجاء ولا ملجأ الا اليـه وفى البيت الأخـير يبدأه بضمير التنبيه ليوضح لمريديه أيضـا هكذا يكون الحب فلذا وهو

متيم مطروح بباب حبيبه • وما أجمل الصورة البيانية فى قوله :

غرقت ببحر الجود ما لى سوى الرضا
لديك وان القــى بعــزك خاضـــع

فجعل الشاعر الجود وكرم محبوبه بحرا يغرق فيــه على سبيل الاستعارة المكنية وفى الشطرة الثانية فى البيت وجه من وجوه تحسين الكلام وهو الطباق بين « عزك وخاضع » واعتقد أن الشاعر الصوفى ابن نوح أراد بهذه الأبيات أن يعلم مريديه ويصقل نفوسهم ويهذبها بتقوية عاطفة الحب الالهى وتنمية الوجدان الروحى ليمهدها على تحمل عصف الوجد ولعج الحب والتمرس على تباريح الهوى •

٢ ــ وقال فى حب الله والتسليم لارادته تعالى :

لم يبــق لــى فيمــا أريــد ارادة
كلا ولا لى فى العــوالم مطمـــع
ســلب اختيــارى فى هواك فحيثما
دفعت به ايدى اختيــارك ادفـــع
فأنا المــريد لمــا تريــد حقيقـــة
لا أنثنى ولا أرتجــى لا أجـــزع
وأنا المحــب لمــا تحب وان تشــا
طمعــا فانى فى وصــالك اطمـــع
هــذا وان قنعتــنى بخيـــالكم
فأنا الذى بخيالكم اتقنـــع(٩)

(٩) الوحيد جـ ٢ ص ٣٢ واتقنع : اتوارى •

فكما ترى الأبيات واضحة لا غموض فيها ولا رمزية وهو بهذا يخالف ما طبع عليه الشعراء المتصوفة من الاغراق فى الغموض والاتجاه الى الرمزية كثيرا • وعلى هذا الاتجاه سار فى معظم شعره الذى وصل الينا من سهولة سهلة وعذوبة عذبة وعاطفة متدفقة ومعان منسابة وأسلوب محكم وعبارات منسقة ونحو ذلك •

٣ ــ وفى حب الله كذلك قال :

أتيت وطرفى فى العوالم يركض
وأبسط كفى تارة ثم أقبض(١٠)

ولا لى فى كون الوجود التفاتة
ولا عوض عنكم به اتعوض

ولا نى من قرب ولا بعد فى الهوى
ولا لى اقبال ولا آنا معرض

ففوض أمرى أن يفوض أمره
اليك فانى ان تشاء مفوض(١١)

ويشيد بالحب الالهى ويسخر ممن يلومونه فيه وان الحب الصادق والحقيقى هو الذى يلتزم فيه صاحبه ولا يحفل بالذل واللوام ولا يرى فيه عارا بل العار أن يخلو من العار فقال فى حبه الى الله وهيامه به :

---

(١٠) يركض : يتحرك متأملا فى الكون •
(١١) الوحيد ج ٢ ص ٣٣ •

الصادق الحب لا يخشى من العـــار
والعـــار فى الحب أن يخـلو العار
لا ســـتر فى الحب الا وهـــو منتهك
والستر فيـــه بان يضحى به عـــار
علامة الحب لا تخفـــى على أحـــد
يغص بالمـــاء أو يلتـــذ بالنار(١٢)

٤ ــ ويقـــول كذلك :

شربت الهوى حلوا ومرا وان كان طعمه
أمر من الصـــبر المـــذاق العـــلقم(١٣)

٥ ــ وقال فى مناجاة الله والضراعة :

لولا حظـــوظى فيما قـــد قضيت به
لكان فعلى فى العصـــيان كالقـــرب
اذ كنت بحـــرا بـــلا علم ولا عمل
لقا لفعلك لم احضر ولم أغـــــب
شـــطحا لمـــا منـــك لا منى اليك فما
عين الحقيقة من قصـــد ومن طلـــب
أنا الحجاب الذى قـــد كان يحجبنى
فارفع بحقك ما كونت من حجب(١٤)

---

(١٢) الوحيد جـ ١ ص ١٢٣ .
(١٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٤ .
(١٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣ .

٦ ــ وقال فى مراقبــة الله :

كأن رقيبا منــك يرعى جوارحـــى
وآخــر يرعى خاطــرى ولســـانى

فما خطــوت فى باطن الأرض خطوة
لغيرك الا قلت قــد ســمعانى(١٥)

٧ ــ ويقول فى حبــه لله أيضــا :

أنــا افتى ان ترك الحـــب ذنــب
آثم فى مذهــبى من لا يحـــــب

ذق على أمــرى مرارات الهـــوى
فهــو عــذب وعــذاب الحب عــذب

كل قلــب ليــس فيـــه ســاكن
صــبوة عذرية ما ذاك قلـــب(١٦)

يوضح الشاعر فى هــذه الأبيات أن له مذهبا وهو الحب الخالص لله تعالى ويفتى بذلك ان ترك هــذا الحب والهيام ذنب واثم كبير ... ويجرد من نفسه نفسا آخرى يخاطبها بأن تذوق مرارات هــذا الحب فتجده عذبا طيب المنهل وان عذابه ومراراته عذب أى رغم ما به من عذاب ومرارة فهو حلو وعذب وان كل قلب يخلو من حب الله ليــس بقــــلب .

---

(١٥) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٢ .

(١٦) الطالع السعيد ص ٣٢٤ طبقات السبكى جـ ٦ ص ١٣٦ .

وهذه الأبيات لحنها جعفر المزموم وغناها له(١٧) والأبيات سهلة الألفاظ رقيقة المعانى فياضة المشاعر والأحاسيس عاطفة الشاعر صادقة متأججة بحب الله تعالى • وفى الأبيات كثير من وجوه تحسين الكلام •

فضمن بيته الأول بأسلوب من التوكيد حيث استهله بالجملة الاسمية التى تفيد التوكيد وكذلك استخدام « ان » التى تفيد التوكيد •

وأسلوب الانشاء فى البيت الثانى الذى يفيد النصح والارشاد • وكذلك من وجوه تحسين الكلام فى الأبيات الطباق والجناس فى البيت الثانى بين « عذب وعذاب » والطباق بين « مرارات وعذب » •

شعر الحنين الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

١ ــ قال ابن نوح :

اعد ذكر من أهواه ياسابق الظعن
وخذ كل ما عندى وخذ مهجتى منى
وشنف بعود الذكر يا سعد وبسمعى
لتشهده عينى وتسمعه أذنى

---

(١٧) جعفر المزموم أحد القوالين والمغنين فى عصر ابن نوح كان يلحن الأشعار يغنيها فى المحافل والمناسبات الدينية ونحو ذلك راجع : الوحيد ج ٢ ص ١٤٣ •

وخذنى بعد المال عبد لخدمة
وان كنت لا ترضى فنفسى به رهنى

فالشاعر يحن شوقا وهياما للرسول ﷺ .

لذا يرجو من سعد أن يعيد عليه ذكر الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ويأخذ منه كل ما يملكه من أموال ونفس وغير ذلك .

فهو بهذا الحديث يطرب وكلما كرر الحادى ذكره ازداد طربا وحبا وشوقا فيه تقر العين وتسمعه الأذن .

والشاعر وهب نفسه وامواله وكل ما يملكه له ويكفيه أن يكون عبدا لخدمته ﷺ .

فماذا ترى فى هذه الأبيات غير السهولة والعذوبة والوضوح .

٢ ــ ويقول فى التلذذ بعذاب الحب وطلبا للعفو ممن يحب :

طعم العذاب على وصالك يعذب
والموت أحلى فى الوصال وأطيب

ان كان قد قطعت يدى فى حبكم
فلنقض عهد أو لأنى أكذب

فالعفو منكم للمسىء سجية
ولأجل عفوكم أناب المذنب

ولقد منيتم لى بقية مهجتى
فبحقكم يا سادتى ولا تغضبوا

(١٨) الوجيز جـ ٢ ص ٢٣ .
(١٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٢ .

يتجلى ابن نوح فى هـذه الأبيات ليبين ويوضح أن طعم العذاب فى الوصال حلو المذاق وان الموت أحلى وأطيب اذا كان يؤدى به الى وصال الأحباب وأن يده اذا كان قـد قطعت فبسبب نقضـه عهـدهم ولذا يطلب الصفح والعفو وهما من شيمة الكرماء الذين من سـجيتهم العفو عن المسيئين ولأجل هـذا العفو رجـع المذنب عن ذنوبه التى أبعـدته عنهم *

ولقد منوا عليـه بالرضا والعفو ويرجوهم ألا يغضبوا عليه • فهم سادته وأحبابه ولعل هـذا من الحب الالهى والرمزى فالشاعر يذوب حبا فى من أحب *

٣ ــ وقال فى الحنين وحب آل البيت :

بقـاء نفسى فى بون أننى عجـب
لان موتى من بعـض الذى يجـب
وما بقيت روحـى لسـت أملكهـا
وليس لى فى حيـاتى بعـدهم أرب
رضـاء قلبى أن يرضوا بسـفك دمى
هم هم ان رضوا فى الحب أو غضبوا
والقرب والبعـد ما شاءوا فـديتهم
هم الأحبـة ان شطوا وان قربـوا
وهم نهـاية أمالى ومرتجعـى
اليهم آل قصـدى وانتهى الطـلب
كرر حديثهم يا سـعد فى أذنـى
فلست أنسى ولكن هـزنى الطـرب

(٢٠) راجع : طبقات السبكى جـ ٦ ص ١٢٧ ــ

الشاعر يرى أن قلبه لا ينبغى أن يبقى بعد فراق الأحبة وان بقى يحمدهم شىء عجب •

فليس له بعدهم أمل ولا مأرب ويالیتهم يرضون سفك دمه فى سبيل رضاهم وهم أحبابه على البعد والقرب وهم غاية الآمال ونهايتها اليهم القصد وعندهم الطلب وفى نهاية حديثه وختام أبياته يطلب من رفيقه سعد أن يكرر حديثهم وذكرياتهم ليتزود بها وينعم برحيق شذاها بها يهتز وجدانه وتفيض أحاسيسه ومشاعره •

والأبيات على كل حال حنين صوفى رمزى •

والشاعر وفق فى اختيار الألفاظ والمعانى البديعية كالطباق بين (شطوا وقربوا) وبين (القرب والبعد) والاحتراس فى قوله :

.. .. فلست أنسى ولكن هزنى الطرب

وما أجمل صدق العاطفة وقوة تدفقها فى حب آل البيت الذى أرق حياته حتى انه أباح سفك دمه حبا فى رضاهم •

فى شكوى حاله :

يقول ابن نوح :

كفى حزنا ان لا صديق وانفى
فريد بلا عيش يسر ولا نسك

---

(٢١) نسك : قيل العبادة • وقيل هى سبايك الفضة وهى المراد هنا

كأنى نضـــار ظنـــه الدهر بهـــرجا
فألقـــاه فى نار ليخـــلص بالســـبك

كرهت حيـــــاتى واستطبت منيـــتى
اذا ضحكت ســـنى فقلبى دما يبـــكى

يجرد الشاعر فى هـــذه الأبيات من نفسه شخصا يخاطبه بقوله : « كفى حزنا » وكأنه طال به الحزن والأسى من قلة الرفيق والصـــديق فهو يعانى الوحدة حيث قسوة الفقر فلا ثروة ولا جاه معـــه ولا مال ولا خلان حتى أصبح كالذهب يوضع فى النار يسبك وانه يضيق بحياته ويتمنى الموت والأبيات على كل حال خارجة عن نطاق واتجاه التصوف فهى تعبر عن شكوى من حالة فى لحظة ضيق .

وما اشتملت عليه الأبيات من صور الجمال واجد الكتابة الجميلة التى عبرها الشاعر فى مستهل أبياته بقوله : كفى حزنا فى كتابه عن شـــدة الحزن والألم والقسوة من الفراق وما اشـــتمل عليـــه البيت الثانى من تشبيه فى قوله (كأنى نضار) فهو شبه نفسه بالذهب الملىء بالشوائب .

وما اشتمل عليه البيت الأخير من صور بلاغية :

الأولى : استطبت منيتى . فهى استعارة بالكناية ، حيث شخص المنيـــه بفتـــاة غادة .

---

(٢٢) نضار : الذهب الملىء بالشوائب . وبهرج : الشىء الردىء .
(٢٣) الوحيد ج ٢ ص ١٢ .

والثانية : ضحكت سنى • حيث شخص الأسنان بانسان يضحك على سبيل الاستعارة المكنية •••• والثالثة : فقلبى دما يبكى •

ومن وجوه تحسين الكلام الطباق فى البيت الأخير بين « ضحكت وبيكى » •

فى التوكل على الله :

يقول ابن نوح :

أبدا عليك على الدوام توكلى
يا مقصدى يا ملجئى يا مقالى

ما لى سواك وان عجزت بجهلة
أعنتنى من حياتى وتحيلى

فأنا الذى ان صح انى عبدكم
لا مثل لى لا مثل لى لا مثل لى

فالشاعر فى هذه الأبيات يبدو وتوكله على الحى الذى لا يموت وهو دائم التوكل عليه لأن لا مقصد له ولا ملجأ له الا الله فهو مطلبه وانه غريب فى هذه الحياة وليس له فيها سواه فهو عبده الذى لا يلوذ الا به • أن صح ذلك فلا مثيل له •

---

(٢٤) الوحيد جـ ٢ ص ٣٣ •

(٢٥) كان المصدر الذى اعتمدت عليه فى حديثى عن نثره الأدبى والفنى هو كتابه الوحيد فى سلوك أهل التوحيد وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٦ ، ٢٢٧ تصوف •

نثـــره الفـــنى :

النثر الأدبى والفنى عنـد عبد الغفـار بن نوح نال أهمية كبرى حيث اتجه فيـه الى الوعظ والنصح والارشـاد والحـكم والحقائق والأسرار والتضرع والابتهال الى الله وتحدث فيـه عن التوبة والتوكل والزهد والخوف ونحو ذلك •

والمتصفح لكتابه الوحيد فى سـلوك أهل التوحيـد والتصـديق والايمان يجده زاخرا بالكنوز النثرية •

وكل ذلك ليوضح الطـريق لتلاميذه ، والمريدين والسالكين من المتصوفة • وسأذكر أمثلة من هـذا النثر فيما يأتى :

صـور من نثـر ابن نوح

فى التـــوبة :

يقول ابن نوح :

التوبة : هى أول السلوك الى الله تطهـيرا من الذنوب وتشريفا للألسنة والقلوب وتنزيها عن الشوائب والعيوب وتقـديما لذكر المحب والمحبوب اذ التوبة أول كل مقـام وآخر كل مقام وشامل لكل مقـام ومشاركة فى كل مقام على الاستمرار والدوام يستوى فيها المسائر والواقف والآمن والخائف والسالك والعارف فى نفس التوبة لا مراتب التوبة اذ توبة كل واحـد بحسب حاله فان حسنات قوم سيئات قوم آخرين وقـد تكون التوبة عن التوبة توبة وقد يأخذ بعضهم باللفتـة والخطرة بحسب علو مقامه ويأتى غيره بالنظائم فلا يؤثر فيـه •

والتوبة لا تصح الا بالانخلاع عن جميع الذنوب كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها أولها وآخرها وشروطها الظاهرة وهى الانخلاع عن الذنب أولا باول قولا وفعلا ظاهرا وباطنا والندم الملازم للقلب ثانيا حتى يحرق نيران الخوف كبده ويظهر ذلك على جوارحه من البكاء والنحول والذبول والأسف واللهف وقطع علائق القلب بالمنا بالعزم الجازم أن لا يعود أبدا حتى يذهل ذلك العزم عقله ويقطع نياط قلبه الخجل مما وقع فيه واطلاع الله تعالى عليه ويجد لذلك ذوقا .

فى هذه القطعة الواضحة السهلة العذبة التى لا تحتاج الى تحليل أرى الأديب الصوفى جارى فيها أدباء عصره فى الصنعة البديعية التى لم تكن متكلفة بل وضحت المعنى وجمله .

واعتمد فيها الأديب على السجع طويل الفقرات كقوله « التوبة » : هى أول السلوك الى الله تطهيرا من الذنوب وتشريفا للألسنة والقول وتنزيها عن الشوائب والعيوب وتقديما لذكر المحب والمحبوب .

واستمر السجع بين الفقرات الى آخر القطعة ومن الطباق قوله : « أول كل مقام وآخر كل مقام » وقوله : يستوى فيها السائر والواقف والآمن والخائف .

وقوله : حسنات قوم سيئات قوم آخرين . وكقوله : كبيرها وصغيرها وجليها وحقيرها فى أولها وآخرها وظاهرا وباطنا .

وكل هذه المحسنات جاءت عفو الخاطر ولم تؤد المعنى بل هى خادمة له .

---

(٢٦) المجيد فى سلوك أهل التوحيد والايمان جـ ٢ ص ٣ .

ومن وصاياه للسالكين قوله : « أيها السالك لا تسلك الوسائل بكثرة السؤال وسلوك الاحتيال بغير الله تعالى محال فلا تتصل اليه بغيره ولا تنال خيره الا من خيره وعليك بالأدعية فى كل الأوقات واختر لها أوقات الخلوات وساعات الاجابة وان كنت تعلم ان الدعاء لا يرد المقدور لكن قد يكون الدعاء من المقدور فى دفع المقدور وأنت به مأمور وأحكام المحو والاثبات غير مرفوعة فى جميع الأوقات وحكم الله تعالى فلا يتجهوا لغير الله عز وجل لأن الخير الذى يناله السالك والمشيئة لا تجرى عليها والحجر عليها محال(٢٧) .

فى هذه الوصية يوصى السالكين أن يعتدلوا فى سلوكهم مع الله تعالى فلا يتجهوا لغير الله عز وجل لأن الخير الذى يناله السالك من خيره تعالى . كما يوصيه بكثرة الدعاء فى كل لحظة وكل وقت وخاصة أوقات الخلوات وساعات الاجابات .

لأن الدعاء قد يدفع المقدور .....

والقطعة سهلة الألفاظ ... رقيقة المعانى صادقة العاطفة .. فهى خالية من الغموض ولا تكلف فيها ... وما جاء من الصفة البديعية كالسجع وغيره فهو حسن المعنى وواضحه .

ومن وصاياه لأحد مريديه قوله :

أيها الأخ كل نفس فاتك من الله تعالى فهو عليك خسران وان عوضت به ألف جنيه فان فى الله تعالى عوض عن كل شىء وليس فى شىء عوض عن الله تعالى وفى هذا الكلام غنيمة عن غيره .

---

(٢٧) الوحيد : فى سلوك أهل التوحيد جـ ٢ ص ١٩٦ .

فهو يوضح للمريد السالك بأن يكون هو وما يملك من نفس وغيره ملكا لله تعالى فالله هو عوض عن كل شيء وان أى نفس اذا تنفسته لم تذكر فيه الله فهو عليك خسران وبوار لأنه لا يقدر بمال ولو كان العوض عنه بألف جنيه .

ومن وعظه وارشاده لتلاميذه قوله : « قد يرى السالك نفسه عاجزة عنه فيكون ذلك سببا لتأخيره عن السير فاذا ذكرنا له أهل زمانه لعله يجد الحجة واقامة الدليل على نفسه ممن هو فى عصره وزمانه وان لم يتصف ويتواجد وان لم يجد ويتباكى ان لم يبك ولا يجد لنفسه عذرا فيمن سبقه »(٢٩) .

ويقول فى الوعظ والارشاد لمريديه ضاربا أروع الأمثلة فى كيفية الحياء من الله تعالى :

« انك لو كنت بحضرة ملك من ملوك الدنيا وبين يديه من يحبه من جمال الصورة والوصائف المستحسنة ما كنت تستطيع أن تنظر اليهن بعين الشهوة وتلاحظهن فى تلك الحضرة وتعرض عن الملك مع ملاحظته لك بالمراقبة فى حركاته وسكناته فانظر الى هذا المقياس فضلا عن أن تفعل ما هو أكبر من ذلك فلو أنزلت الله من نفسك منزلة هذا الملك لما وقع منك معصية البتة(٣٠) فى هذه النصيحة والموعظة يسوق للمريد مثالا يقرب به كيف يكون التأديب وهو بحضرة ملك من ملوك الدنيا فما باله وهو بحضرة ملك الملوك وهو رب المعبود فيكون

---

(٢٨) الوحيد جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢٩) الوحيد جـ ٢ ص ١١ .

(٣٠) الوحيد فى سلوك أهل التوحيد جـ ٢ ص ١٤ .

الحياء منـــه أفضل وأعظم من هـــذا العبد وهو سلوك لرب المـــلوك .

واذا جعل هـــذا السالك والمريد الله عز وجل بمنزلة هذا المـــلك لـــا ارتكب معصية أبدا .

وقال عن الايمان بالرسل عليهم السلام :

« يجب عليك الايمان بالرسل وبما جاءت به من الله تعالى اذ هم حجة الله الواضحة القاطعة الدامغة للمخالفين لأنهم صلوات الله عليهم وسلامه أتوا بالمعجزات الباهـــرات والآيات البينـــات والاخبـــار عن المغيبـــات »(٣١) .

وعن الايمان بالله والملائكة والرسل قال :

« ... ونحن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ونؤمن بايمان رسول الله ﷺ وبما أنزل اليه من ربه وما أنزل الى الرسل من ربهم ونؤمن بالقـــدر كله خيره وشره حلوه ومره فـــلم يخالف الأنبياء صلوات الله عليهم وســـلامه فى وحـــدانية الله تعالى وربوبيته ومعرفته وصفاته وما أتوا به من عنـــد ربهم وكلمتهم فى ذلك واحدة واعتقادهم واحد عضدهم بالعصمة فـــلا يقـــع منهم نقيصـــة ويستحيل عليهم الكذب فيما أتوا به من عند ربهم ... »(٣٢) .

ويقول فى الخـــوف :

« وأما الخوف فهو ينشأ عن المعرفة وينقسم الى قسمين تارة من

---

(٣١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠ .

(٣٢) الوحيد جـ ٢ ص ١١ .

شهود العظمة الالهية وتارة من شهود القوة والعذاب فتحرق نيران الخوف قلب الخائف بما يتوقعه ولا يكون الخوف الا لمتوقع فمنهم من يشيب قبل أوان شيبه وأعرف من حصل له ذلك ومنهم من يذهل عقله .

أما خوف المقدمين فهو مذكور فى الكتب وقصدنا الآن ذكر أهل زماننا ومن أفرط به الخوف أداه الى القنوط فان افراط الخوف ينشأ عنه القنوط واليأس وتهرب النفس من القدوم على ما تخافه فيكره لقاء الله تعالى فيكره الله تعالى لقاؤه وانما يروح بقوله تعالى : « لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » وقوله تعالى « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » فهذا تنبيه على كرمه جل وعلا فيقول غرنى كرمك فى معان كثيرة لقوله تعالى : « ما على المحسنين من سبيل » فتكون الرحمة والمغفرة والجود والكرم والمنة والاحسان واللطف والحنان وكذلك جميع تعلقات صفات الجمال للمسيئين(٣٣) .

وفى الزهد يقول :

وأما الزهد فهو ترك ما سوى الله تعالى وهذه حقيقة الزهد على أنه وان تحقق .

انه ليس شىء يتركه فى ترك الا ما ليس له(٣٤) .

وفى الزاهدين قال :

أما الزاهدون : فهم على قدر هممهم وعلو شأنهم ومطالبهم ومقصادهم ونياتهم وسلوك المبتدى والمتوسط والمنتهى فى الزهد(٣٥).

---

(٣٣) الوحيد فى سلوك أهل التوحيد جـ ٢ ص ١٤ .

(٣٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٧ .

(٣٥) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨ .

وقال فى التجـــريد :

التجريد يدخل فى الزهد والتجريد عبارة عن تجريد الظاهر والباطن من المـــألوفات والمعلومات والعادات وخلع الثيـــاب وقطع الأســـباب ورفع الحجاب حتى يخلع النعلين ويرفض الكونين ويرفع حكم الكيف والواجب على الرجل ستر عورته هو ما بين سرته وركبته ومن تجـــرد ظاهره ولم يتجرد باطنه فذلك من التبليس وأوصاف التبليس وحبـــائل اللعين وابليس وذلك من علامات وسوء الأخلاق فان من أظهر خـــلاف ما ابطن فهو منافق فيعمل على تجريد باطنه من غير ربه تعالى وليبـــدأ بتطهير نفسه وقلبـــه فان الملائكة لا تدخل بيتا فيـــه كلب ولا صـــورة فكيف تتنزل الأسرار الالهية والتجليـــات الربانية على ثبـــوت قلوب مشحونة بصورة الشهوات النفسانية وكلاب الصفات المعنوية ونجس القاذورات الدنيوية(٣٦) .

وفى التوكل يقول :

أما التوكل فهو نتيجة الزهد فان كل من ترك ما سوى الله تعالى انقطع الى الله تعالى وأوى اليـــه واعتصم واعتمد فى جميع أحـــواله عليـــه وهو كالطفل الرضيع الذى لا يعرف غير أمه فى طعامه وشرابه وسكونه ومنامه لا يفرح الا بها ولا يحزن الا عليها ولا يعرف شـــيئا سواها ويدخل فى التوكل التفويض وهما شىء واحد ، قال الله تعالى : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » وقال عـــز وجـــل « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وورد فى الحديث « لو انكم تتوكلون على الله تعالى

---

(٣٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠ .

تحق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »(٣٧) .

- ٥ -

هـذا الأديب الصوفى قد استوعب أحـوال الصوفية وفلسفتهم ومقاماتهم فى شعره ونثره فكان شعره على قلتـه يدور حول الحب الرمزى والحنين الصوفى والمناجاة الروحيـة ويمتاز هـذا الشـعر بسهولة الألفـاظ وعذوبتها وتدفق العاطفة وصدقها وكذلك جلله . شىء من الغموض لأنه لا يعبر الغالب تعبيرا ساذجا وانما يغوص فى المعانى والأفكار وهو لا يخلو من الصنعة البديعية مثل قوله :

أنا افـتى أن تـرك الحـب ذنـب
آثـم فى مذهبى من لا يحـب

ذق على أمـرى مرارات الهـوى
فهو عـذب وعـذاب الحـب عذب

وقـوله :
شربت الهوى حلوا ومرا وان كان طعمه
أمر من الصـبر المـذاق العـلقم

وقـوله :
وما بقيـت وروحى لسـت أملكهـا
وليس لى فى حيـاتى بعـدهم أرب

---

(٣٧) رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده جـ ١ ص ٣٠ المكتب الاسلامى ببيروت وابن ماجة فى سننه عن عمر بن الخطاب كتاب الزهد باب التوكل واليقين جـ ٢ ص ١٣٩٤ طبعة الحلبى بمصر . والترمذى فى سننه فى كتاب الزهد باب التوكل على الله راجع اولحيد جـ ٢ ص ٦٤ .

رضـا قلبى أن يرضوا بسـفك دمى
هم هم ان رضوا فى الحب أو غضوا
والقرب والبعـد ما شاءوا فـديتهم
هم الأحبة ان شـطوا وان قربـوا
وهم نهـاية آمـالى ومرتجعـى
واليهم آل قصدى وانتهى الطـلب

أما نثره فانه أفسح مجالا من شعره فى تصوير أحـوال المريدين والسالكين ومقاماتهم ومواجيدهم •

وهو أحيانا يسوقه فى جمل مسجوعة متسقة كما فى حديثه عن التوبة وأحيانا يسوقه على سـجيته مرسـلا أو متنوعا بين السـجع والترسل كما فى أحاديثه عن الزهد والتوكل والخوف والرجاء وحقيقـة الايمان ونحو ذلك • وهو على كل حال شاعر تقليدى يحن على طريقـة القدماء ويتجه اتجاههم •